

مدارات الاغتراب وأشكاله في شعر البارودي

The orbits of alienation and its forms in Al-Baroudi's poetry

د-دخية فاطمة¹*¹ جامعة بسكرة، (الجزائر)، f.dakhia@univ-biskra.dz

تاريخ النشر: 2022/09/30

تاريخ المراجعة: 2022/09/13

تاريخ الإيداع: 2022/09/01

ملخص:

لا يختلف النقاد العرب في كون ظاهرة الاغتراب من أبرز الظواهر الإنسانية التراجيدية حضوراً في بنية الخطاب الشعري العربي الحديث والمعاصر، ومرد ذلك أنّ الشاعر العربي كان يحاكي واقعه الأليم والجريح في ظلّ مصائب ونكبات الاستعمار الغربي الذي عاث فساداً في البلدان العربية، وجرّع أهلها غصص البؤس والشقاء، لذلك اختار كثير من الشعراء العرب الاصطفاف إلى جانب الوطن وأبنائه المقهورين، فكان جزاءهم إما السجن أو النفي بعيداً عن الوطن والأهل والخلان، ومن أبرز الشعراء الذين تجرّعوا مرارة المنفى والاغتراب في العصر الحديث الشاعر المصري محمود سامي البارودي، إذ عانى الغربة سبع عشرة سنة في سرنديب بالهند، أين أبدع في كتابة أجمل قصائد الاغتراب والمنفى. وقد حاولت في ورقتي البحثية هذه أن أميط اللثام أن أشكال الاغتراب في شعره، وأكشف عن أهم صور المأساة والمعاناة. وانطلاقاً ممّا سبق حاولت الإجابة عن الإشكالات التالية: ما مفهوم الاغتراب؟ وما حقيقته في الشعر؟ وما هي أشكاله ومظاهره في شعر البارودي؟ الكلمات المفتاحية: الاغتراب، محمود سامي البارودي، أشكال الاغتراب، المعاناة، الشوق والحنين.

Abstract:

The phenomenon of alienation is one of the most important tragic phenomena in modern and contemporary Arabic poetry. And the reason for this is that the Arab poet portrays the reality of his homeland wounded and suffering because of the European colonialism that spread pain and injustice in the Arab peoples. And that's why colonialism imprisoned these poets and deplace them away from their homelands. One of the most famous of these poets is the Egyptian poet Mahmoud Sami Baroudi. Where he lived in prison for seventeen years. And in prison he wrote the most beautiful poems of alienation.

I will study in my research the types of alienation in baroudi poetry, and I will answer the following question: What is the concept of alienation? and what are the types of alienation in baroudi poetry?

Key words: Alienation, Mahmoud SAMI Baroudi, Types of alienation, Suffering, Nostalgia and Longing.

*المؤلف المراسل.

تقديم:

يعتبر مفهوم الغربة والاغتراب من أكثر المفاهيم النقدية شيوعاً في الشعر العربي على مرّ التاريخ وتعاقب العصور، حيث ظلّ يتردّد صداه عند كثيرٍ من الشعراء العرب كلّما حلّت بهم نائبة أو أطلّت على بلدانهم وأمصارهم نكبة أو مصيبة، فيعزف الشاعر العربي على أوتار شعره ألوان المعاناة والأسى، ويبثّ صوراً وأشكالاً من الاغتراب، مُصوِّراً حاله أو حال أُمَّتِهِ إِيَّان نَكْبَةٍ مِنَ النِّكَبَاتِ، أو مُلَمَّةً مِنَ المُلَمَّاتِ.

وقد اتخذ الاغتراب أشكالاً مختلفة ومتعدّدة عند الشاعر العربي؛ فقد يكون اغتراب وجودي مغلف بغلاف ميتافيزيقي وقد يكون اغتراباً مكانياً له علاقة بروح الانتماء وبالتعلّق الوجداني بالوطن والأهل والأخلاء، وقد يكون اغتراباً نفسياً أو ثقافياً زمانياً في ظلّ مجتمع مادي يهْمَش العلم وأهل العلم.

ويعتبر الشاعر المصري محمود سامي البارودي أحد شعراء النهضة العربية الذين شاعت في شعرهم نزعة الاغتراب بصورة جليّة وظاهرة حتّى صارت سمة بارزة. ومردّ ذلك أنّ البارودي من الشعراء الذين نوفوا خارج أوطانهم بسبب مواقفهم الوطنيّة المناهضة للاستعمار والانتداب، وقد طال به المنفى، إذ عصر أحزانه ودموعه مدراراً؛ فكتب أجمل أشعار الاغتراب والحنين في العصر الحديث.

وقد تتبعتُ تمثّلات الاغتراب وأشكاله في شعر البارودي، وركزت على نمط التصوير والتخييل الذي اتخذ أشكالاً كلاسيكية قائمة على محاكاة النماذج القديمة، كما لاحظت تنوعاً كبيراً في مظاهر الاغتراب كما سأتبين في مقالي هذا، واعتمدت في ذلك على المنهج الوصفي وآليات التحليل. و انطلاقاً ممّا سبق ما سبب نزوع البارودي في شعره للاغتراب؟ وما هي أشكال ومظاهر الاغتراب في شعره؟

عرض:

الاغتراب من الظواهر الإنسانيّة البارزة منذ القدم، فقد أشار إليه الفلاسفة والمثقفون منذ القدم في كتاباتهم المختلفة، خاصة وأنّ الحياة البدائية كانت حياة صعبة قائمة على الحِلّ والترحال، كما كانت مليئة بالصراعات والحروب التي تحول حياة الناس من الاستقرار إلى الاغتراب، فتفيض مشاعر المغتربين بكلمات عميقة تكتنز مشاعر الأسى والحسرة والشوق، وقد كانت تقودهم في بعض الأحيان إلى التمرد والعصيان وفي البعض إلى الاستسلام والانعزال والانغلاق على الذات¹.

ولاشكّ أنّ مصطلح الاغتراب قد ركّز عليه الباحثون والنقاد والفلاسفة وحاولوا ضبط مفهوم دقيق له، حيث اختلفت مفاهيمهم للاغتراب باختلاف خلفياتهم الفكرية والثقافية، فما مفهوم الاغتراب؟ وما هي أشكاله وأنواعه؟

1- مفهوم الاغتراب:

يرى ابن منظور أنّ الاغتراب من المادة اللغوية (غَرَبَ)، وتؤشّر لمعنى الغياب والذهاب والاختفاء عن الناس والبعد عنهم، ورجل غريب أي ليس من القوم، والغريب الغامض من الكلام². وانطلاقاً من ذلك يظهر أنّ الاغتراب في اللغة يؤشّر للحركة والانتقال من مسقط الرأس والمكان المألوف والابتعاد عن الأهل والأصحاب والخلان إلى مكان مختلف وبعيد وغير مألوف في مكانه وعوائدهم ونحلهم.

إنّ الاغتراب لا يأتي اعتباطياً في حياة البشر، بل هو تغير وتحوّل مفاجئ له أسبابه ودوافعه التي تتردّد بين الرغبة والرغبة، وقد يكون اختيارياً أو حتمياً، يقول أبو حامد الغزالي: "والفوائد الباعثة على السفر لا تخلو من

هرب أو طلب، فإنَّ المسافر إمّا أن يكون له مزعج عن مقامه ولولاه لما كان له مقصد يسافر إليه، وإمّا أن يكون له مقصد ومطلب³.

والاغتراب من الظواهر الإنسانية القديمة، ويرى رجال الدين أن الاغتراب ظهر مع نزول الإنسان الأول إلى الأرض، حين اغترب عن وطنه الأول الممثل في الفردوس بسبب الخطيئة والمعصية، وكأنَّ الاغتراب هو عقوبة المخطئ بغرض التطهير و الخلاص قال تعالى: "قَالَ أَهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى"⁴. كما أنَّ الاغتراب في مفهومه الديني يتخذ معنى آخر له بعد نفسي يتمثل في إحساس الإنسان الملتزم بالقيم و المثل باضطراب هذه القيم في وسطه الاجتماعي و شيوع اللامنطق في سلوكات الأفراد، فيحسَّ معها ذلك الإنسان الملتزم بالنفور و القلق و الاغتراب فيغيب معهما الانسجام مع هذه البيئة المضطربة، يقول الرسول صلى الله عليه و سلم في هذا المعنى: "بدأ الإسلام غريباً وسيعود كما بدأ غريباً، فطوبى للغرباء"⁵، وهذا المفهوم يعكس صراع الأنا مع الآخر المخالف للقيم والقناعات كهجرة موسى عليه السلام وقومه في حادثة شق البحر، وهجرة النبي محمد ﷺ والمؤمنين إلى الحبشة والمدينة بسبب اختلاف القيم والمبادئ وتصادمها، وهذا المفهوم هو الأكثر شيوعاً عند المفكرين في مختلف الميادين والمجالات الأخرى كالأدب وعلم النفس علم الاجتماع وغيرها.

ولاشكَّ أنَّ الاغتراب بالمفهوم السابق القائم على صراع النفس مع المحيط المخالف لها في قيمها ومبادئها موجود في الشعر الجاهلي، ومن ذلك ما نجده عند الشاعر الجاهلي الشنفرى، الذي صنف ضمن الشعراء الصعاليك، وقد سمي بالصعلوك لمخالفته نظام قبيلته، ورفضه للطبقية والتفاوت والظلم، حيث نجده يقول في لاميته المشهورة يصف اغترابه القيمي:

أَقِيمُوا بَنِي أُمِّي صُدُورَ مَطِيئِكُمْ *** فَإِنِّي إِلَى قَوْمٍ سِوَاكُمْ لَأَمِيلُ
فَقَدْ حُمَّتِ الْحَاجَاتُ وَاللَّيْلُ مُقَمَّرٌ *** وَشَدَّتْ لِبَطْنِي مَطَايَا وَأَرْحَلُ
وَفِي الْأَرْضِ مَنَآئِلٌ لِلْكَرِيمِ عَنِ الْأَذَى *** وَفِيهَا لِمَنْ خَافَ الْقِلَى مُتَعَزِّلُ⁶

كما نجده عند عنتره بن شدّاد العبسي الذي أحسَّ بالاغتراب وسط أفراد قبيلته عبس، لا لشيء إلاَّ للونه الأسود ونسبه إذ كانت أمّه أمة، حيث يقول عنتره في ذلك:

لَنْ يَعْيبُوا سَوَادِي فَهَوَالِي نَسَبٌ *** يَوْمَ الْإِزَالِ إِذَا مَا فَاتَنِي النَّسَبُ⁷

لذلك نجد أنَّ كثيراً من المفكرين ينظرون إلى الاغتراب على أنَّه حالة نفسية تكون فيه النفس البشرية غير قادرة على التعرف على ذاتها في مخلوقاتهما من الأشياء والموضوعات⁸، فالاغتراب إذن هي عدم قدرة النفس على التعرف على ذاتها في وسط المحيط الاجتماعي، وإحساسها بالانفصال عن الآخرين، حيث يرى الباحث في علم النفس محمد رجب " أنَّ الاغتراب متعلّق بما يحدث للفرد من اضطرابات نفسية وعقلية، وما يستشعره من غربة في العالم، وفتور وجفاء في علاقته مع الآخرين"⁹.

2- تجليات الاغتراب وأشكاله في شعر محمود سامي البارودي:

محمود بن حسن بك البارودي شاعر مصري من شعراء النهضة العربية ولد بالقاهرة في عام 1839 م، وقد نشأ في عائلة ميسورة الحال، حيث درس وتعلم بالمدرسة العسكرية، فتخرّج منها ضابطاً، وقد كان مولوعاً بحفظ الشعر وإنشاده حتّى صار شاعراً فصيحاً، وقد كان كثير السفر والترحال خاصة نحو أوروبا، كما كان

عارفا باللغات كالفارسية والتركية، ترقى في الجيش المصري حتى صار لواء ؟، غير أن مواقفه الوطنية المناهضة للانتداب البريطاني في مصر كلفته كثيرا، حيث نفي إلى جزيرة سرنديب جهة الهند، حيث لبث فيها سبعة عشر سنة قال فيها أجود شعره في الاغتراب والمنفى¹⁰.

وسأحاول أن أتبع في شعر البارودي تمظهرات وتمثلات ظاهرة الاغتراب، وأكشف عن أسبابها، وأبين أشكالها وأنواعها كما يأتي:

2-1- الاغتراب السياسي في شعر البارودي:

وأعني بالاغتراب السياسي هي تلك المعاناة التي عاشها البارودي في منفاه بجزيرة سرنديب بالهند مدة سبعة عشر سنة بسبب مواقفه الوطنية وتهجمه على الانتداب البريطاني، تلك المعاناة التي هي السبب المباشر في اغترابه عن وطنه وأهله وخلانه لهذه المدة الطويلة، وهي سبب الذي دفعه للإبداع الفني والشعري حيث نظم أجمل أشعار الحنين والمنفى.

ومن نماذج هذا الاغتراب أن البارودي كان يردّ في كثير من المرات على خصومه وحاسديه في مصر، ويبين أن ما حلّ به هو بسبب حبه لوطنه ودفاعه عنه من ذلك قوله:

يا نَدِيمِي مِنْ سَرَنْدِيبٍ كُفًّا *** عَنْ مَلَامِي وَخَلْيَانِي لِمَا بِي
لا أَبَالِي بِمَا يُقَالُ وَإِنْ كُنْ *** تْ مَلِينًا بِرَدِّ كُلِّ جَوَابِ
قَدْ كَفَانِي بُعْدِي عَنِ النَّاسِ أَتِي *** فِي أَمَانٍ مِنْ غِيْبَةِ الْمُعْتَابِ
فَلْيَقُلْ حَاسِدِي عَلَيَّ كَمَا شَاءَ *** ءَ فَسَمِعِي عَنِ الْخَنَا فِي احْتِجَابِ
لَيْسَ يَخْفَى عَلَيَّ شَيْءٌ، وَلَكِنْ *** أَتَغَابِي وَالْحَزْمُ الْفُ التَّغَابِي¹¹

فالشاعر وهو في منفاه يصله ما يفتره عليه مبغضوه وأعداؤه فيترك في نفسه الحسرة، ولكنّه في نفس الوقت واثق من مواقفه الوطنية، ويظهر عدم اكتراثه من الافتراءات التي تطاله في كلّ مرّة. ثمّ نجده يطلب نصرة أبناء وطنه له، ويدعوهم للوقوف معه في محنته:

سَلُّوا عَنْ فُؤَادِي قَبْلَ شَدِّ الرِّكَائِبِ *** فَقَدْ ضَاعَ مَيِّي بَيْنَ تِلْكَ الْمَلَاعِبِ
إِذَا لَمْ تُعِينُونِي وَأَنْتُمْ عَشِيرَتِي *** فَسِيرُوا وَخَلُّونِي فَلَسْتُ بِذَاهِبِ
أَيَذْهَبُ قَلْبِي غِيْلَةً ثُمَّ لَا أَرَى *** لَهُ بَيْنَكُمْ مِنْ نَائِرٍ أَوْ مُطَالِبِ
إِذَا الْمَرْءُ لَمْ يَنْصُرْ أَخَاهُ بِنَفْسِهِ *** لَدَى كُلِّ مَكْرُوهِ فَلَيْسَ بِصَاحِبِ
فَلَا تَعْدُلُونِي إِنْ تَخَلَّفْتُ بَعْدَكُمْ *** فَمَا أَنَا عَنْ مَتَوَى الْفُؤَادِ بِرَاغِبِ¹²

ونلمس في هذه الأبيات نبرة عتاب لأبناء وطنه المتخلفين عن نصرته فمن لا ينصر أخاه وقت المصيبة لا يعدّ صاحباً ولا صديقاً، لذلك يحذّره ويقول لهم أن لا يلوموه إن تخلف عنهم في مرّة قادمة. ويكثر في شعر البارودي اللوم والعتاب على أصحابه من أصدقاء النضال المتخلفين عن نصرته والدفاع عنه، ويبين أن ما أصابه هو بسبب حبه لوطنه، من ذلك قوله أيضاً:

فَيَا أَخَا الْعَدْلِ لَا تَعَجَلْ بِالْإِنْمَةِ *** عَلَيَّ فَالْحُبُّ سُلْطَانٌ لَهُ الْغَلَبُ
لَوْ كَانَ لِلْمَرْءِ عَقْلٌ يَسْتَضِيءُ بِهِ *** فِي ظُلْمَةِ الشَّكِّ لَمْ تَعْلَقْ بِهِ النُّوبُ
وَلَوْ تَبَيَّنَ مَا فِي الْغَيْبِ مِنْ حَدَثٍ *** لَكَانَ يَعْلَمُ مَا يَأْتِي وَيَجْتَنِبُ

لَمْ يَبْقَ لِي غَيْرَ نَفْسِي مَا أَجُودُ بِهِ*** وَقَدْ فَعَلْتُ فِهْلَ مِنْ رَحْمَةٍ تَجِبُ
فَيَا سَرَاةَ الْحِمَى مَا بَالُ نُصْرَتِكُمْ*** ضَاقَتْ عَلَيَّ وَأَنْتُمْ سَادَةٌ نُجِبُ
أَضَعْتُمُونِي وَكَانَتْ لِي بِكُمْ ثِقَةٌ*** مَتَى خَفَرْتُمْ ذِمَامَ الْعَهْدِ يَا عَرَبُ¹³

البارودي يرى أنه لا يملك أعلى من نفسه ليضحي بها من أجل وطنه، ولكنه لم يجد النصرة من إخوانه العرب الذين أضاعوه وهو الذي كان يثق فيهم، ثم ينتقدهم بقوله: متى نقضتم العهد يا عرب؟!، وهو استفهام تعجبي الغرض منه الإنكار والدهشة.

ونجد البارودي ينكر عن نفسه أي جرم وأي خطأ، وأن كل ما فعله بسبب حبه الكبير لوطنه، ورغبته في رعاية مصلحته وصون حريته، يقول في ذلك:

وَمِنْ عَجَائِبِ مَا لَاقَيْتُ مِنْ زَمَنِي*** أَنِّي مُنِيتُ بِخَطْبٍ أَمْرُهُ عَجَبُ
لَمْ أَقْتَرِفْ زَلَّةً تَقْضِي عَلَيَّ بِمَا*** أَصْبَحْتُ فِيهِ فَمَاذَا الْوَيْلُ وَالْحَرْبُ
فِهْلَ دِفَاعِي عَنْ دِينِي وَعَنْ وَطَنِي*** ذَنْبٌ أَذَانُ بِهِ ظُلْمًا وَأَغْتَرِبُ
فَلَا يَظُنُّ بِي الْحَسَادُ مَنْدَمَةً*** فَإِنِّي صَابِرٌ فِي اللَّهِ مُحْتَسِبُ
أَثَرْتُ مَجْدًا فَلَمْ أَغْبَأْ بِمَا سَلَبَتْ*** أَيْدِي الْحَوَادِثِ مِنِّي فَهَوَ مُكْتَسَبُ¹⁴

ثم نجده في الأخير يردّ على حساده أنه غير نادم على مواقفه الوطنية ودفاعه عن وطنه وأنه صابر في الله محتسب.

2-2- الاغتراب الزمني في شعر البارودي:

كثيرا ما نجد في شعر البارودي نزوعا واضحا إلى الحكمة وتجسيد القيم والمثل التي تعلّمها من الدهر والزمان، فهي هو البارودي يشكو غربة الزمن حين انقلبت عليه الحياة وصرمت عنه حبال الشباب فصار شيخا كبيرا متحسّرا على كل ما فاتته، يقول في ذلك:

أَعِدْ يَا دَهْرُ أَيَّامَ الشَّبَابِ*** وَأَيْنَ مِنَ الصِّبَا ذَرَكُ الطَّلَابِ
زَمَانٌ كُلَّمَا لَاحَتْ بِفِكْرِي*** مَخَايِلُهُ بَكَيْتُ لِفَرْطِ مَا بِي
مَضَى عَنِّي وَغَادَرَنِي وَلَوْعًا*** تَوَلَّدَ مِنْهُ حُزْنِي وَاكْتِنَابِي¹⁵

فالبارودي يفتتح قصيدته البائية ببناء مفعم بمشاعر الحسرة والأسى على توالي أيام الشباب وانقطاع ذكريات الصبا، وكلّما لاحت ذكرياته في خيال الشاعر زادت أُلما فجرت دموعه جموما دون انقطاع مشكلة موجة من الكآبة والحزن قد استولت على كيان الشاعر، ثم نجده يقول في شيء من الحسرة:

وَكَيْفَ تَلَدُّ بَعْدَ الشَّيْبِ نَفْسِي*** وَفِي اللَّذَاتِ إِن سَنَحَتْ عَذَابِي
أَصْدُ عَنِ النَّعِيمِ صُدُودَ عَجْزٍ*** وَأُظْهِرُ سَلْوَةً وَالْقَلْبُ صَابِي
وَمَا فِي الدَّهْرِ خَيْرٌ مِنْ حَيَاةٍ*** يَكُونُ قِيَامُهَا رَوْحَ الشَّبَابِ¹⁶

وهنا نجد البارودي يبدأ باستفهام بلاغي يفهم منه الإنكار والنفي، فهو ينفي أن تتقبل نفسه اللذة والمتعة وهي في مرحلة الشيب والكبر، بل يؤكد أنّ اللذة للشيخ بمثابة الألم والعذاب النفسي، وهو يعرض عن اللذة لأنّ نفسه عاجزة غير قادرة على تحملها، فهو يسلو عنها على رغبة قلبه فيها.

وما هذا الأسى والألم إلا اغتراب نفسي جعل الشاعر يحس بالغربة الزمانية بين مرحلتي الشيخوخة والشباب فكأن الزمن من مسببات الاغتراب، وما يؤكد ذلك أن البارودي يتحسر على زمن الشباب حين يمعن في استرجاع ذكريات الصبا وذلك في قوله:

فَيَا لِلَّهِ كَمْ لِي مِنْ لَيَالٍ *** بِهِ سَلَفَتْ وَأَيَّامٍ عَذَابٍ
إِذِ النَّعْمَاءِ وَارِفَةٌ عَلَيْنَا *** وَمَرْعَى اللَّهِ مُخْضَرُّ الْجَنَابِ
نَطِيرُ مَعَ السُّرُورِ إِذَا انْتَشَيْنَا *** بِأَجْنَحَةِ الْخَلَاعَةِ وَالتَّصَابِي
فَعُدُّونَنَا وَرَوْحَتَنَا سَوَاءً *** لَعَابٍ فِي لَعَابٍ فِي لَعَابٍ
وَرَبَّتْ رَوْضَةٌ مِلْنَا إِلَيْهَا *** وَقَرْنُ الشَّمْسِ تَبْرِيُّ الْإِهَابِ
نُجَاهِرُ بِالْغَرَامِ وَلَا نَبَالِي *** وَنَنْطِقُ بِالصَّوَابِ وَلَا نُحَابِي¹⁷

ويظهر من الأبيات السابقة حجم تلك الحسرة والحرقلة على توالي ليالي الصفاء والأنس حين كانت النعم واللذات وارفة وكثيرة على الشاعر، إذ يبالغ في وصفها حين يقول إنها نعم تجعله يطير من السرور والانتشاء غير أن عيها أن أجنحة تلك المسرة واللذة هي الخلاعة وطيش الشباب، حينها يكون الوقت محجوزا كله للهو واللعب ولا شيء آخر. غير أن هذه الذكريات وغيرها ممّا ذكر البارودي ما هي إلا سراب قد تلاشى، يقول في ذلك:

فَيَا لَكَ مِنْ زَمَانٍ عِشْتُ فِيهِ *** نَدِيمَ الرَّاحِ وَالْهَيْفِ الْكِعَابِ
إِذَا ذَكَرْتُهُ نَفْسِي أَبْصَرْتُهُ *** كَأَنِّي مِنْهُ أَنْظُرُ فِي كِتَابِ
تَحَوَّلَ ظِلُّهُ عَنِّي وَأَذْكَى *** بِقَلْبِي لَوْعَةً مِثْلَ الشَّهَابِ¹⁸

إن هذه الغربة الزمانية النفسية التي وصفها البارودي هي حالة إنسانية يشترك فيها كلّ الناس، لأنّ الإنسان حين يكبر ويصير شيخا يحس بالعجز والخمول، ويحس أن بدنه لا يسعفه على قضاء ما يشتهي فيعيش غريبا تائها متحسرا وغارقا في بحر الذكريات. لذلك نجد البارودي يختم هذه القصيدة بحكمة يقول فيها:

كَذَاكَ الدَّهْرُ مَلَأَ خُلُوبُ *** يَغُرُّ أَخَا الطَّمَاعَةِ بِالْكَذَابِ
فَلَا تَرْكُنْ إِلَيْهِ فَكُلُّ شَيْءٍ *** تَرَاهُ بِهِ يُؤُولُ إِلَى ذَهَابِ
وَعِشْ فَرْدًا فَمَا فِي النَّاسِ خِلٌ *** يَسُرُّكَ فِي بَعَادٍ وَاقْتِرَابِ¹⁹

وكأنّ البارودي في النهاية يكتشف الدواء لهذا الداء الذي أتعبه وأنهك بدنه، وهو وجوب اعتزال الدنيا وملذاتها وترك الطمع جانباً واعتزال الناس على شاكلة الزهاد العبّاد.

2-2- الاغتراب المكاني في شعر البارودي:

وأقصد به شوق الشاعر لمسقط رأسه وحنينه إلى أهله وخلّانه وأصحابه بسبب البعد والمنفى، وهو أكثر أشكال الاغتراب بروزا في شعر البارودي، إذ نجد البارودي يكثر من ذكر نار الشوق التي ترعى كبده بسبب بعده عن الأهل والخلّان، فنجدته يقول في ذلك:

لَوْلَا مُكَابَدَةُ الْأَشْوَاقِ مَا دَمَعَتْ *** عَيْنٌ وَلَا بَاتَ قَلْبٌ فِي الْحَشَا يَجِبُ
فَيَا أَخَا الْعَدْلِ لَا تَعْجَلْ بِلَائِمَةٍ *** عَلَيَّ فَالْحُبُّ سُلْطَانٌ لَهُ الْغَلْبُ
كَأَنَّ قَلْبِي إِذَا هَاجَ الْغَرَامُ بِهِ *** بَيْنَ الْحَشَا طَائِرٌ فِي الْفَخِّ يَضْطَرِبُ
لَا يَتْرُكُ الْحُبُّ قَلْبِي مِنْ لَوَاعِجِهِ *** كَأَنَّمَا بَيْنَ قَلْبِي وَالْهَوَى نَسْبُ

فَلَا تَلْمَنِي عَلَى دَمْعٍ تَحَدَّرَ فِي *** سَفْحِ الْعَقِيقِ فَلِي فِي سَفْحِهِ أَرْبُ
مَنَازِلُ كُلَّمَا لَاحَتْ مَخَايِلُهَا *** فِي صَفْحَةِ الْفِكْرِ مِنِّي هَاجَنِي طَرْبُ
لِي عِنْدَ سَاكِنِهَا عَهْدٌ شَقِيتُ بِهِ *** وَالْعَهْدُ مَا لَمْ يَصُنْهُ الْوُدُّ مُنْقَضِبُ²⁰

فالبارودي يظهر أنّ حنينه إلى أهله وخلّانه قد أذهب عنه لذة النوم، وأنّ سلطان الحبّ له الغلبة على قلبه العليل، لذلك يدعو لائميّه إلى التماس الأعداء له، لأنّ قلبه كطائر سجين لا حيلة له، ثم نجد الشاعر يذكر دياره والأماكن التي يحنّ إليه في وطنه الجريح مثل سفح العقيق ويذكر شوقه إلى ساكنيه.

وبعد ذلك نجد البارودي تحسّر على البعد والفراق، كما يذكر وحشة المنفى حين يقول:

أَبِيتُ فِي غُرْبَةٍ لَا النَّفْسُ رَاضِيَةً *** بِهَا وَلَا الْمُلتَقَى مِنْ شِيعَتِي كَثْبُ
فَلَا رَفِيقٌ تَسُرُّ النَّفْسَ طَلَعَتْهُ *** وَلَا صَدِيقٌ يَرَى مَا بِي فَيَكْتَتِبُ
فَإِنْ يَكُنْ سَاءَ نِي دَهْرِي وَغَادَرَنِي *** فِي غُرْبَةٍ لَيْسَ لِي فِيهَا أَخٌ حَذِبُ
فَسَوْفَ تَصْفُو اللَّيَالِي بَعْدَ كُدْرَتِهَا *** وَكُلُّ دَوْرٍ إِذَا مَا تَمَّ يَنْقَلِبُ²¹

فيبدأ البارودي أبيات بجملة خبرية تعكس الحسرة والمعاناة بسبب الغربة وغياب الرفقة من شيعة وأحبابه، ولكنّ نفس الشاعر مسكونة بأمل لا يتركه في زوال الهمّ وانكشاف الألم.

ويبدو أنّ الاغتراب قد أكل زهرة شبابه ومحي محاسن وجهه لذلك يكثر الشكوى من العناء والمشقة التي لقيها في منفاه وفي زنارته، كما يشكو من لهيب نار البعد عن وطنه فيقول في ذلك:

مَحَا الْبَيْنُ مَا أَبَقَتْ عُيُونُ الْمَهَا مِنِّي *** فَشَبْتُ وَلَمْ أَقْضِ اللَّبَانَةَ مِنْ سَيِّ
عَنَاءٍ وَيَأْسٍ وَاشْتِيَاقٍ وَغُرْبَةٍ *** أَلَا شَدَّ مَا أَلْقَاهُ فِي الدَّهْرِ مِنْ غَبْنِ
فَإِنْ أَكْ فَارَقْتُ الدِّيَارَ فَلِي بِهَا *** فَوَادُ أَضَلَّتْهُ عُيُونُ الْمَهَا مِنِّي²²

ثمّ بعدها يسترجع البارودي بعض الذكريات المؤلمة التي تنحت في قلبه العليل مشاعر محزنة ويقول في ذلك:

فَهَلْ مِنْ فَتًى فِي الدَّهْرِ يَجْمَعُ بَيْنَنَا *** فَلَيْسَ كِلَانَا عَنْ أَخِيهِ بِمُسْتَعْنِ
وَلَمَّا وَقَفْنَا لِلْوَدَاعِ وَأَسْبَلْتُ *** مَدَامِعُنَا فَوْقَ التَّرَائِبِ كَالْمَزْنِ
أَهْبْتُ بِصَبْرِي أَنْ يَعُودَ فَعَزَّنِي *** وَنَادَيْتُ حِلْمِي أَنْ يَثُوبَ فَلَمْ يُغْنِ
وَلَمْ تَمْضِ إِلَّا خَطَرَةٌ ثُمَّ أَقْلَعْتُ *** بِنَا عَنْ شَطُوطِ الْحَيِّ أَجْنَحَهُ السُّفْنِ
فَكَمْ مُهْجَةٍ مِنْ زَفَرَةِ الْوَجْدِ فِي لَطَى *** وَكَمْ مُقْلَةٍ مِنْ غَزَرَةِ الدَّمْعِ فِي دَجْنِ²³

والبارودي باستفهام بلاغي يناشد ويتمنى أن يسخر الله له من يجمع بينه وبين أهله لأنّ الدهر قد صرم حبال الوصال بينهم، لذلك تجده يستذكر تلك اللحظة المؤلمة حين فارق الأهل والخلان، وسالت دموعه جموما كقطرات المزن، حيث يخونه الصبر ويغدر به حلمه وعقله، ولا زال يذكر تلك السفينة التي غادر فيه فتركت في ذاته أنفاساً ملتجة.

ويكثر البارودي من أمنيات الأوبة والرجعة إلى وطنه الحبيب، فيمعن في وصفه وتجميله فهو ريحانة نديّة وعطرة يقول في ذلك:

أَعَانِدْ بِكَ يَا رِيحَانَةَ الزَّمَنِ *** فَيَلْتَقِي الْجَفْنُ بَعْدَ الْبَيْنِ وَالْوَسَنِ

أَشْتَاقُ رَجْعَةَ أَيَّامِي لِكَاطِمَةٍ*** وَمَا بِي الدَّارُ لَوْلَا الْأَهْلُ وَالسَّكَنُ
فَهَلْ تَرُدُّ اللَّيَالِي بَعْضَ مَا سَلَبَتْ*** أَمْ هَلْ تَعُودُ إِلَى أَوْطَانِهَا الظُّعُنُ
أَهْنَتْ لِلْحُبِّ نَفْسِي بَعْدَ عِزَّتِهَا*** وَأَيُّ ذِي عِزَّةٍ لِلْحُبِّ لَا يَهِنُ²⁴

وشوق البارودي ليس للديار والمساكن بقدر ما هو شوق حار للأهل والأحباب، لأنه عاشق محب قد أهان نفسه وفاء وحبا.

ثم يؤكد البارودي شدة التعلق بالأهل والأحباب الذي أذهب عنه النوم وأهزل بدنه، لذلك نجده يتوسل منهم شربة وصال تحيي نفسه الميتة، يقول:

يَا رَا حِلِينَ وَفِي أَحْدَا جِهِمْ قَمَرٌ*** يَكَادُ يَعْبُدُهُ مِنْ حُسْنِهِ الْوَتْنُ
مُتُونَا عَلَيَّ بِوَصْلٍ أَسْتَعِيدُ بِهِ*** مِنْ مُهْجَتِي رَمَقًا يَحْيَا بِهِ الْبَدَنُ
أَوْ فَاسَمَحُوا لِي بِوَعْدٍ إِنْ وَنْتُ صِلَةً*** فَالْوَعْدُ مِنْكُمْ بِطَيْبِ الْعَيْشِ مُقْتَرَنُ
لَمْ أَلْقَ مِنْ بَعْدِكُمْ يَوْمًا أُسْرِبُهُ*** كَأَنَّ كُلَّ سُرُورٍ بَعْدَكُمْ حَزَنُ²⁵

خاتمة:

انطلاقاً مما سبق خرجت بمجموعة من النقاط المهمة لعل أبرزها ما يأتي:
- البارودي شاعر مجيد صهرته التجربة القاسية، فجعلت منه شاعر الألم والمعاناة باقتدار، لذلك أكثر من الكتابة في معاني الاغتراب بسبب المنفى والبعد عن الوطن والأهل والخلان.
- الاغتراب عند محمود سامي البارودي اتخذ أشكالاً مختلفة، إذ تحس في كثير من شعره بأن ألم الاغتراب مرده البعد عن الوطن والأهل والأحباب، وتارة تحس أن ألمه مرده خصومه السياسيين في مصر، والذين كانوا سببا مباشرا فيما حل به من نفي وسجن، لذلك يكثر من لومهم وعتابهم، كما يلوم أصدقاء النضال على تخاذلهم، كما نجد البارودي يشكو من الاغتراب الزماني وتغير الظروف والأحوال.
- يبدو البارودي ذو شخصية وطنية قوية، إذ يظهر في كثير من شعره تعلقه بوطنه وحبه الشديد له، واستعداده للتضحية في سبيله، كما يظهر عدم ندمه على مواقف الوطنية ودفاعه عن دينه ووطنه، كما يبدو متفائلا بتغير الأحوال وزوال المعاناة عنه، وهذا يعكس مدى صبره وثقته بالله.
- يعتبر محمود سامي البارودي من شعراء النهضة العربية، وهو شاعر محافظ، يشبه شعره شعر فحول الشعراء العرب من حيث توظيف المعجم القديم والميل لمحاكاة الصور والأخيلة التقليدية القديمة.

قائمة المصادر والمراجع:

المصحف الشريف برواية ورش، دار ابن كثير، دمشق، سوريا، ط 10، 2002م.

- المصادر:

- 1- الشنفرى، الديوان، تح: إميل بديع يعقوب، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان، ط 02، 1996م.
- 2- عنتره بن شداد، الديوان، مطبعة الآداب، بيروت، ط 1893م.
- 3- محمود سامي البارودي، الديوان، تح: علي الجارم، دار العودة، بيروت، لبنان، ط 1998م.

- المراجع:

- 1- أبو حامد محمد الغزالي، إحياء علوم الدين، تح: بدوي طبانة، مكتبة الدعوة الإسلامية، القاهرة، ج 2، د. ط، د. ت.
- 2- حمود التويجري، غربة الإسلام، دار الصميعي للنشر والتوزيع، الرياض، السعودية، ط 2012م.

- 3- دراجي سعيدي وآخرون، اللغة العربية وأدائها للسنة الثالثة من التعليم الثانوي للشعب الأدبية، منشورات وزارة التربية الوطنية الجزائرية، الجزائر.
- 4- محمد راضي جعفر، الاغتراب في الشعر العراقي، منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق، ط 1999م.
- 5- محمود رجب، الاغتراب سيرة المصطلح، دار المعارف. الإسكندرية، مصر، ط 1976.

- المعجم:

- 1- ابن منظور، لسان العرب، دار صادر، بيروت، د. ط.

هوامش وإحالات المقال

- ¹ - محمد راضي جعفر، الاغتراب في الشعر العراقي، منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق، ط 1999م، ص 1.
- ² - ينظر: ابن منظور، لسان العرب، مادة (غَرَبَ)، مج 04، ص 41.
- ³ - أبو حامد محمد الغزالي، إحياء علوم الدين، تح: بدوي طبانة، مكتبة الدعوة الإسلامية، القاهرة، ج 2، د. ط، د. ت، ص 245.
- ⁴ - سورة طه، الآية 123.
- ⁵ - حمود التويجري، غربة الإسلام، دار الصميعي للنشر والتوزيع، الرياض، السعودية، ط 2012م، ص 10.
- ⁶ - الشنفرى، الديوان، تح: إميل بديع يعقوب، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان، ط 02، 1996م، ص 58.
- ⁷ - عنتر بن شداد، الديوان، مطبعة الآداب، بيروت، ط 1893م، ص 11.
- ⁸ - أنظر: محمود رجب، الاغتراب سيرة المصطلح، دار المعارف. الإسكندرية، مصر، ط 1976م، ص 01.
- ⁹ - المرجع نفسه، ص 35.
- ¹⁰ - دراجي سعيدي وآخرون، اللغة العربية وأدائها للسنة الثالثة من التعليم الثانوي للشعب الأدبية، منشورات وزارة التربية الوطنية الجزائرية، الجزائر، ص 55.
- ¹¹ - محمود سامي البارودي، الديوان، تح: علي الجارم، دار العودة، بيروت، لبنان، ط 1998م، ص من 66 إلى 68.
- ¹² - المصدر نفسه، ص 69 و 70.
- ¹³ - المصدر نفسه، ص 72 و 73.
- ¹⁴ - المصدر نفسه، ص 74.
- ¹⁵ - المصدر نفسه، ص 64.
- ¹⁶ - المصدر نفسه، ص 64.
- ¹⁷ - المصدر نفسه، ص 64.
- ¹⁸ - المصدر نفسه، ص 65.
- ¹⁹ - المصدر نفسه، ص 66.
- ²⁰ - المصدر نفسه، ص 72 و 73.
- ²¹ - المصدر نفسه، ص 74 و 75.
- ²² - المصدر نفسه، ص 265.
- ²³ - المصدر نفسه، ص 266.
- ²⁴ - المصدر نفسه، ص 635.
- ²⁵ - المصدر نفسه، ص 637 و 638.